في عالم الفن :

الوجـــودية

« مهداة الى الدكتور محمد القصاص »

للاستاذ علي متولي صلاح

يكتب الكثيرون عن الفلسفة الوجودية ، وعن المذهب الأدبي الوجودي ، فيتهمون المذهب بالشذوذ والانحراف عما يقضي به العقل السليم ، ويرمونه بأنه انتكاس للطبيعة الإنسانية ، ورجوع بها إلى حال الهمجية والبدائية الأولى ، وهم في ذلك لم يبلغوا من فهم هذا المذهب شيئا ، ولم يدرسوه دراسة تبيح لهم أن يناوءه بهذه المطاعن ، والناس — بعد — أعداء ما جهلوا ، وهم أسرع إلى الاتهام ، وأشد نهضة إلى كلمة السوء !

وكان آخر ما كتب في هذا الصدد تلك الكلمة الفجة المبتسرة التي كتبها الأستاذ أحمد الصاوي محمد في « الأهرام » منذ أيام ، فلم يبسط فيها رأيا ، ولم يتكلم فيها بشيء عن قواعد المذهب الوجودي ومقوماته ، ولكنه ابتدر أصحابه بالإساءة رأسا حيث كتب يقول :—

« هل المخلوق ليس إلا عدما ! ؟ من ذا الذي يقول ذلك غير زعيم « الوجوديين » جان بول سارتر زعيم ذلك الخليط العجيب من الناس الذين اجتمعت كلمتهم على تقبيل بعضهم بعضا في الملاهي دون أن يعرف بعضهم بعضا ! . لقد شهدت باريس أمس روايته التمثيلية الجديدة « الشيطان والله سبحانه » ! ولم يجتمع لرؤيتها أولئك « الحرافيش » الذين ينتسبون إلى أستاذهم ؛ وهم في تياب مهلهلة مفتوحة ، بل اجتمعت طائفة من أشهر نجوم السينما . »

والعجيب في أمر هذا المذهب أنه — ولو أن براعمه لم تتفتح بعد — قد تعرض لأذى كثير ، وسخرية كبيرة من الناس ، ونقم عليه الشيوعيون والبورجوازيون وأصحاب المذاهب المتطرفة كما نقم عليه الوطنيون والاستعماريون المحافظون ، ولمنه الكاثوليكيون والراديكاليون الفرنسيون ، وأولئك يعادون الكاثوليكيين أشد معاداة ! واتخذه الناس رمزاً للقبح والسفه ، حتى ليروى جان بول سارتر أن سيدة فرنسية تعتذر عما يصدر منها من عبارات غير كريمة في ساعات غضبها بقولها « يبدو أني قد أصبحت وجودية » !

ولكن أصحابه صامدون لهذا الأذى الذي يتناولهم الناس به ، مؤمنون بأنهم يقومون للانسانية بأجل خدمة ، إذ ينشرون مبدأ « الحرية » والعزة والكرامة الإنسانية ، ويبشرون بأن الإنسان هو أثمن شيء في الوجود ، وبأنه يجب أن يحيا كريما عظيما حرا

والوجودية لا تذهب هذا المذهب الذي ألصقه بها الأستاذ أحمد الصاوي في زعمه أنها لا ترى في المخلوق إلا عدما !

إن المذهب الوجودي لا يرى هذا الرأي ، وإنما يرى نقيضه تماما ، إنه يرى الإنسان هو كل شيء في هذه الحياة ، ويراه محور كل هذه الدنيا التي نعيش فيها ، إليه يرجع كل عمل ، ومنه يصدر كل تغيير أو تعديل لأوضاع الحياة ، ومن أجله تقوم التشريعات والتقاليد والنظم ، فكيف يراه عدما وهو في رأيه جماع ذلك كله ؟

تقوم الوجودية على فلسفة ومذهب في الأدب ينقض كل ما سبقه من مذاهب أدبية كالسوريالية والواقعية والرومانية وما إلى ذلك من المذاهب الصغيرة كالمادية والتكعيبية وسواهما من مختلف المذاهب

أما الفلسفة الوجودية فتقوم على أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له كامل الحرية في تكوين ماهيته على الوجه الذي يراه ، وعلى الصورة التي يبتغيها ، وهو يقوم بذلك قويا قادرا غير خاضع للبيئة والظروف كما تنادي بذلك نظرية « تين » ، ولا خاضع للاطار العام للدولة كما ينادي بذلك « كارل ماركس » الذي يجعل من الإنسان آلة أو أداة في يد الدولة لا أكثر ولا أقل ! لا يدور إلا في فلكها ، ولا يتعدى تفكيره تفكيرها

وفى هذه الفلسفة السارترية ما يأباه علينا إيماننا ، وليس من بأس أن نتركه ولا نستمسك بأهدابه ، ولا على المذهب الأدبى السارترى بعد ذلك من بأس إذا هجرنا الفلسفة السارترية واستمسكنا به ، ونبذناها واتبعناه ، وإن كان فى حقيقته وجوهره منبنيا عليها ومتفرعا عنها

وأما المذهب الأدبى الوجودى الذى ينادى به جان بول سارتر : فإنه يقوم على ما يسمى « التزام الآداب » ومعناه أن يكون للأدب هدف ، وأن يكون الأدب فى الحياة عملا إنشائيا إيجابيا فى خلق الحياة الفاضلة ، وتغيير الحياة السيئة وتطويرها ، فالكاتب الذى التزم الكتابة قد حمل نفسه مسئولية عظمى فى هذه الحياة ، أو على الأصح حمل نفسه أعظم مسئوليات الحياة جميعا ، فهو يكتب لا لترجية فراغ ، ولا لإظهار البراعة اللفظية والمقدرة اللغوية ، ولا ليقيم مهرجانات ومواكب من العبارات الموسيقية الخلابة . ولكنه يكتب ليكشف الحياة لنفسه وللناس ، ثم ليدعو الناس إلى عمل ما بإزاء هذه الحياة ، يدعوهم إلى حبها إن كانت تستحق الحب ، وإلى تغييرها إن رآها تستوجب التغيير ، وإلى هدمها واقتلاعها من جذورها إن وجدها جديرة بذلك . . فالكتابة — عند المذهب الوجودى — عمل من الأعمال أو قل إنها أهم عمل من أعمال الحياة ، وعلى الكتاب تقع مسئولية ما فى الحياة من عوج وشذوذ وفساد أول ما تقع ، والكلمات عند سارتر إنما هى أسلحة نارية ، ومن تكلم أو كتب فقد أطلق هذه السهام ، والكاتب مسئول عن الحياة اليومية الواقعية للناس وللوجود ، ومن هنا كان اشتقاق اسم هذا المذهب الذى يشارك فى الوجود وفى الحياة مشاركة فعالة ، منتجة مغيرة ، هدامة فى بعض الحالات ، والكتاب مشتركون ، أو هم قادة للجهاد السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الحياة التى يعيشونها ، وعليهم أن يعرفوا ذلك تماما ، وأن يفترضوا لما يكتبون أوسع انتشار وأعظم دوى وأبعد صدى

والوجودية — فى تحميلها الكاتب كل هذه المسئوليات — إنما تلتمسها من الحرية العريضة التى تفترضها فيه ، إنها تفترض فيه حرية شاملة كاملة لا يحد منها شئ ، حرية لا تنشأها مثل ومبادئ سابقة ، ولا تقهرها ظروف أو بيئة ، فالكاتب الحر قدير على أن ينهزم هذه الظروف ويرتفع على تلك البيئة ، ولا تحدها وطنية ضيقة ، فالكاتب الوجودى لا يقف عند حدود وطنه ، بل يتعداه إلى دفع الظلم أيا كان موطنه ، ومحاربة الفساد فى أى مكان يراه ، فسارتر مثلا دافع عن الزنوج وانتصر لهم على الأمريكان فى روايته المسماة « القحبة الحفية » التى قام بترجمتها الكاتب الوجودى المصرى « الدكتور محمد الفصاص » والتى نرجو أن ينشرها على الناس حتى يتمرغوا بحق بعض المبادئ الإنسانية العالية التى ينطوى عليها المذهب الوجودى

والوجودية تطلب إلى الكاتب ألا يهرف فى الهواء ، ورثى الحريات المضيعة ، ويبكى الظلم فى الحياة ، ويذرف الدمع سخينا على خلو الحياة من العدالة وما إلى ذلك . إن الوجودية لا تعرف هذا النواح فى الهواء الطلق ، ولا البكاء فى الخلاء العريض ، ولكنها تطلب إلى الكاتب أن يحارب ظلما معينا واقعا من ظالمين بأعيانهم ، على مظلومين بأعيانهم ! إنها تطلب إلى الكاتب أن ينظر حواليه ، فإن وجد ظالما أخذ بتلابيبه وحاربه حربا لا هوادة فيها ولا رحمة ، فإن سكت الكاتب عن ظلم يراه ويشهده فقد خان الأمانة وخرج — بسكوته عن محاربة هذا الظلم — على قواعد المذهب الوجودى الصحيح

والوجودية تطلب أن يكون الناس متفقين مع أنفسهم ، صادقين معها فى السر والعلن ، يحملون مسئولية ما يفعلون ، ولا يتنصلون من عمل يعملونه ، وألا يكونوا أوغادا منافقين يصنعون ما يطلبه إليهم ذلك الشاعر الذى يقول : —

فالبس لحال جديدا والبس لآخرنا !

تلك هى الخطوط الرئيسية جدا ، للمذهب الوجودى ، قصدنا بها إيضاح حقيقة هذا المذهب وإن كان إيضاحا يسيرا قصيرا . وما أحرانا نحن المصريين أن نستمسك بأهداب هذا المذهب ، فالفساد عندنا مستشر ، والنفاق عندنا عام مشترك ، والحريات عندنا مضيعة مهدرة . وما أحرانا — قبل ذلك كله — ألا نخوض فى حديث لم نسبر غوره ، ونتعرف — بعد — وجه الرأى فيه ، كما يفعل أولئك الذين يعيبون المذهب الوجودى . وأغلب الظن أنهم لا يعرفون منه إلا اسمه !

على شرلى صدوح